



في ثنايا تأصيله للثورة على الأنظمة الظالمة الفاسدة راح الإمام الجويني في كتابه (غياث الأُمّ) - وهو الكتاب الغرير في علم السياسة الشرعية - يضع القواعد المنهجية الموجّهة والضابطة لسلوك (الثوار) بحيث لا تنحرف الثورة عن مسارها ولا تتجه لغير مقصدها.

بدأ أولاً في الصفات الموجبة للثورة مفرقاً بين الفسق المقتصر على الذات، فهذا عنده ليس مسوغاً للخروج بحال - وقد أفضى في تأصيل ذلك -، وبين الفسق المتعدي الذي تنشأ عنه المظالم الكبيرة والمفاسد العظيمة (فاما إذا تواصل منه العصيان، وفشا منه العداون، وظهر الفساد، وزال السداد، وتعطلت الحقوق... واستجرأ الظلمة، ولم يجد المظلوم منتصفاً منن ظلمه... فلا بد من استدرارك هذا الأمر المتفاقم... فالبدار البدار قبل أن تزول الأمور عن مراثبها، وتميل عن مناصبها، وتميد خطة الإسلام بمناكبها) ص275.

في هذه الرسالة يرد الإمام بنفسه ردًا واضحًا وقاطعاً على من يتهمه اليوم أو يتهم فقهاء المسلمين بأنهم كانوا يؤصلون للاستبداد والطغيان، ويوالون السلطان كيما كان.

وفي مقابل هذا يضع الإمام بين يدي الشعوب الثائرة قاعدة أخرى في غاية الأهمية والخطورة، وكأنه ينظر اليوم إلى واقع الثورات العربية وما آلت إليه (فلا نطلق للأحاديث في أطراف البلاد أن يثوروا، فإنهم لو فعلوا ذلك لاصطلموا وأبieroوا، وكان ذلك سبباً في زيادة المحن، وإثارة الفتنة، ولكن إذا اتفق رجل مطاع ذو أتباع وأشياع... فليمض في ذلك قدماً، والله نصيره، على الشرط المقدم في رعاية المصالح، والنظر في المناجح، وموازنة ما يُدفع، ويرتفع بما يتوقع) ص282.

إن الإمام يتكلم هنا بوضوح عن وحدة القيادة، فالثورة لا تجوز عنده إلا بهذا الشرط؛ درءاً للفتنة والفوبي المحتملة أثناء الثورة، وتلافياً لما يتكرر وقوعه بعد الثورة من احتراب واقتتال وتنازع على السلطان بمختلف الزرائع، فيكثر الهرج، وتتعدد الرايات والشعارات، وتكثر الدماء والأشلاء، حتى (لا يدرى القاتل فيه قتل، ولا المقتول فيه قُتل)، فينسى الناس أصل مصيبيتهم، وسبب ثورتهم، وربما ترحموا على الظالم الأول، مقارنة بما صدمتهم بعد الثورة من كثرة الظالمين والقتلة السفّاحين، هذا باسم الدنيا، وهذا باسم الدين، فلا تكاد تنجو من سيف هذا حتى تقع تحت سيف ذاك.

إن الثورة التي تفشل في توحيد قياداتها من البداية وهي في مرحلة القهر والاستضعاف لا يمكنها أبداً أن توحد قياداتها بعد دنو الغايات، ورفع الرايات، وكثرة الارتباطات، واختلاف الأولويات.

لقد رأينا (الإخوة) في أفغانستان والعراق ثم في أغلب الثورات العربية الذين ربما كانوا ينتمون لمدرسة واحدة، ويصلون في مسجد واحد، كيف أن (الثورة) قد أحالتهم إلى أعداء أشد عداوة من عداوتهم للظالم الذي ثاروا عليه سواء كان (حاكمًا ظالماً) أو (محتلًا غاشمًا)، وكل فريق تبريراته ومسوّغاته و(معلوماته) التي تبدأ عادة بالظنون الرديئة، وتنتهي بالقطيعة الأبدية.

هذه الرسالة ليست وحياً مقدسًا ولكنها رؤية عالم عامل دونها قبل ألف سنة، وهي نموذج لما في تراثنا من ثروة مليّة وخبرة عملية، لو أحسنت الأجيال التعامل معها والاستفادة منها خاصة بالنسبة للذين يتصدرون للمسؤولية ويباشرون الأعمال الجماعية.

العرب القطرية

المصادر: